الفصل الثاني:
ظهور منهج التأويل الحديث في الفكر العربي المعاصر وأهم مشاريعه

المبحث الأول:
أسباب ظهور المنهج التأويلي الحديث في الفكر العربي المعاصر

انتقلت النظريات النقدية الغربية إلى الشرق عبر قنوات عديدة تم بموجبها التعرف على العلوم والحضارة الغربية في فترات زمنية متفاوتة كان لها كبير الأثر في صياغة الفكر النقدي العربي وخصوصًا في مجال تأويل النصوص.

وهذه القنوات مثل:

١. حملة نابليون.

٢. البعثات العلمية.

٣. ترجمة المعارف الغربية.

٤. الإرساليات التبشيرية.

٥. الحركة الاستشراقية.

والمناهج النقدية التي تلقَّاها العرب من الغرب في بداية التفاعل لم تكن في الحقيقة مقصورة على النقد الأدبي بل شملت النص الشرعي أيضًا، وإن كانت مُورِست بدايةً على النص الأدبي إلا أنها انطلقت في عملها على كافة النصوص بما فيها الدينية.

أسباب ظهور المنهج التأويلي الحديث في الفكر العربي المعاصر:

المطلب الأول:
إعـــادة بنـــاء النقـــد وتوسيع مجال المنقود

مرَّ النقد العربي المؤَسَّس على الآلية الغربية بثلاث مراحل مفصلية:

مرحلة التأسيس: وتم في هذه المرحلة:

المناداة لضرورة التخلص من الفكرة المسيطرة من أن العرب القدامى وصلوا إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه في الفكر البلاغي والنقدي، ومن الضروري أن ينفتح العرب على أساليب النقد الحديث ليغيروا أنماط تفكيرهم وأدواتهم.

إعداد أرض خصبة لاستقبال النقد الغربي الحديث، والتخلص من النقد العربي القديم والاندماج في الثقافية الغربية.

لم تخلُ هذه المرحلة من المصادمة للسائد، وحصول جدل فكري حاد وصراع بين ما يسمى بالقديم والجديد، حتى أدت إلى تدخل بعض القرارات السياسية للتهدئة.

مرحلة البناء: وتم في هذه المرحلة:

البناء على ما تم تأسيسه في المرحلة الأولى مع تجاوز إشكالية المصادمة الأولى وخفَّة الحساسية تجاه الوافد الغربي بصفته نقيضًا للأصالة.

تكاثر الأعمال النقدية التي بنت على الأخذ بالمناهج النقدية الغربية.

نشاط ترجمة الفكر النقدي الغربي، مما أتاح لغير الناطقين باللغات الغربية الاطلاع على المدارس النقدية وتوسعها وانتشارها.

مرحلة الانطلاق:

ساعد النتاج العلمي الوافد، والبعثات العلمية المتكاثرة في الانطلاق الذي شهدته هذه المرحلة، ومن أهم ما تم فيها:

مواكبة التطورات التي تمت في المناهج الغربية، والمتابعة الدقيقة للحركة النقدية في الغرب على شتى الأصعدة.

التعرف على البنيوية والتفكيكية بكونهما أجمع المذاهب النقدية في وقت مبكر جدًا من ظهورهما في الغرب.

أصبح النقد هو الموجة السائدة في الفكر العربي الحديث، سواء على مستوى التراث بعمومه أو على مستوى النصوص المؤسّسة لهذا التراث.

الرواج للعناوين النقدية مثل (النقد)، (قراءة)، (إعادة قراءة) بشكل مبالغ، وتصدرها على الواجهات الإعلامية، مما يعطي دليلًا على المستوى الثقافي الذي وصل إليه الفكر العربي المعاصر.

لم تميز الحمى النقدية هذه بين ما يقبل النقد على الطريقة الغربية وما لا يقبله، فلم تسلم النصوص الدينية من مشرحة الناقد الذي صار يمارس دورًا آليًا بحتًا بعيداً عن العلمية بمسمى الاستفادة من منجزات الآخر.

أسباب ظهور المنهج التأويلي الحديث في الفكر العربي المعاصر:

المطلب الثاني:
الجهل بالشريعة وتهميش التـراث

بعد أن تم استقبال تراث الغرب بصفته علمًا وحضارة، تم في الجهة المقابلة استبعاد التراث عن دوره الريادي.

وهذا الاستبعاد نابعٌ عن الجهل بالتراث، سواء في أساسيات الشريعة، أو في مصادر التلقي ومناهج الاستدلال، أو حتى جهل بالحوادث التاريخية المتعلقة بالفكر الديني، فجاءت الخطابات المفتونة حداثيًا هزيلة المعرفة بعموم تراثها وأحداثه.

وساهم هذا الجهل في ضمور ملكة المقاومة تجاه الفكر الغربي الوافد، مما ولد استبعادًا تدريجيًا لمناهج الاستدلال الأصيلة في الفكر الإسلامي، وإحلال مناهج مستعارة تمثلت النظرية الحديثة للتأويل أهم معالمها.

أبرز الكليات التي تنطلق منها الخطابات الحداثية والتي تبين جهلها بفقه التراث الذي تروم إلى تجديده:

أولًا: غياب فعالية السنة

الموقف الحاد الذي تبنته الخطابات الحديثة من السنة جاء نتيجة الجهل بها سواء من ناحية ثبوتها أو دلالتها أو ما يتعلق بهما.

فمن ناحية الثبوت:

تكاثر في خطاباتهم التشكيك في عدالة الرواة الموثقين علميًا، والتشكيك في تأثر السنة بالعوامل التاريخية والسياسية.
كما ظنوا أن المتون الحديثية لم تحظ بمنهج نقدي صارم، فردوا بذلك كثيرًا من الأحاديث.
وهذا نابعٌ من جهلهم بالآلية الدقيقة التي تم فيها جمع السنة وتدوينها، وآلية نقد المتون عند علماء الجرح والتعديل بل إن منهم من نظّر القواعد لهذا العلم.

ومن ناحية الحجية والدلالة:

تواطأت كتاباتهم على الترويج لتقليل دور السنة سواء من ناحية الحجية أو الدلالة.

وقاموا بتقسيم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية.

وهذه الأحكام التعسفية منهم جاءت نتيجة لقصور اطلاعهم على مباحث علوم السنة.

ثانيًا: غياب المنظومة السلفية

الجهل بالمذهب السلفي، ولّدَ تصورًا مغلوطًا عنه، مما زادت الهوة بينه وبين الخطابات العلمانية.

ثالثًا: تغييب العقل السلفي

تم تصوير الفكر السلفي في الخطابات العلمانية على أنه ضد العقل، كما تم الخلط بينه وبين المذهب الأشعري في موضوع التحسين والتقبيح فنسبوا للمذهب السلفي القول بأن المعتمد فيهما ما يرجع إلى الشرع، غير أن قولهم الحق هو الجمع بين العقل والشرع.

بل إن المذهب السلفي هو الفكر الوحيد الذي سعى إلى المواءمة بين النص والعقل بناءً على أن الذي خلق العقل هو الذي أنزل النص.

رابعًا: فعالية الحرية

الحرية بمفهومها العام لا يمكن تصورها في الخطابات العلمانية إلا من خلال الفكر الاعتزالي، لأنه هو الذي عزز مفهوم الحرية والإرادة وراء نجاحات الإنسان.

وهذا الإعلاء من شأن الحرية رافَقه الحط من الفكر السلفي بوصفه المسؤول عن تكريس الجبر والحد من حرية الإنسان، والحق أن الجبر عقيدة الأِشاعرة، أما السلف فقد دافعوا عن حرية وإرادة الإنسان في سبيل هزيمة التوجهات الجبرية.

بالإضافة إلى أن الفكر السلفي لم يقم بمصادرة الحرية بالشكل الذي حصل مع الفكر الاعتزالي، حيث عمل المعتزلة على جبر الناس على القول بآرائهم.

مشكلة الخطابات العلمانية:

أنها لم تفرق بين التراث السني والتراث البدعي على مستوى المعرفة أو الفهم، وتعاملت مع التراث بإطار زمني تاريخي موحد بعيدًا عن الفرز العلمي والمنهجي.

تعاملها بالمنهجية التجزيئية في إطار قراءتها للتراث.

أسباب ظهور المنهج التأويلي الحديث في الفكر العربي المعاصر:

المطلب الثالث:
التجديد وتحول دلالــة المفهـوم

(التجديد) في الأصل مصطلح شرعي ورد في السنة ليحكي معنى الإحياء والتطهير والعودة إلى عصر الرسالة الأول بصفائه ونقائه. وجاء نتيجة تقادم التصور للمفاهيم الإسلامية وتغليب الابتداع على الاتباع، فجاء خطاب التجديد كضرورة ملحة لتجديد (دين الأمة) وليس تجديد (الدين) نفسه.

ومن هذا المنطلق بدأ يتم تداول مصطلح (التجديد) بكثافة في الخطابات العربية المعاصرة وبمفاهيم مختلفة تدور في مجملها حول التحديث إلى جانب تدني المفهومات الأولى من الإحياء والعودة لعصر الرسالة.

لكن مصطلح التجديد الذي يقصده أصحاب الخطاب الحداثي مختلف، ففي لحظة الصدام الحضاري مع الغرب، أحس المنبهرين بالحضارة الغربية بضرورة التواكب مع الموجة الحضارية الغربية. فانطلقوا لإعادة قراءة التراث في العصر الحاضر بغية تجديده ليكون مؤهلًا للدخول في مرحلة الحداثة.

وبموجب هذه المفاهيم الجديدة تم تفريغ المصطلح من محتواه الشرعي ليتم تعبئته بمضامين مستعارة من الحداثة الغربية بآلياتها ومناهجها بعيدة عن المنظومة الإسلامية، واستبعاد مصطلح «التجديد» تدريجيًا ليحل محله مصطلح «القراءة» أو «إعادة القراءة».

إعادة قراءة التراث بين المعرفة والمنهج:

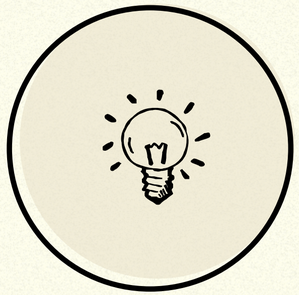

الخطابات التجديدية العلمانية نظرت إلى التراث من الزاوية الزمنية فسوَّت بين الروحي والزمني، وتم إعادة قراءة التراث على هذه التسوية باعتبار أن الدين جزء من التراث الإنساني.

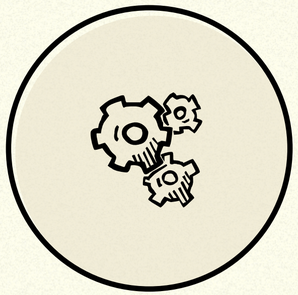

ومن هذا المنطلق كان تبني خطابات التجديد عاملًا مهمًا ساعد في تشكل ظاهر التأويل الحديثة.

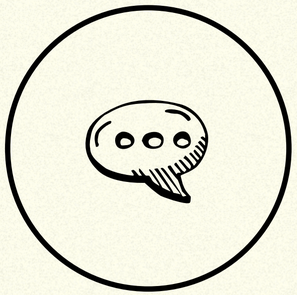

وقد أخذت المشاريع التجديدية في الخطاب العربي المعاصر بالتمدد والتكاثر، وهذه الأعمال تنوعت في منطلقاتها إلا أنها اتفقت في المصب وهو: نبذ القراءة التراثية للتراث، والتدشين لقراءة حداثية له وفق معطيات حديثة.

ومن الملاحظ أن خطابات التجديد المعاصرة وإن كانت ساهمت في تشكيل نظرية التأويل الحديثة، إلا أنه في المقابل؛ فإن نظرية التأويل نفسها أيضًا ساعدت على تطوير آليات تجديد التراث في الجهة المقابلة كما هي عليه في الخطابات العلمانية.

الموقف المعتدل من تجديد التراث:

التجديد مطلوب شرعًا، إلا أنه يتطلب إرادة صادقة وفهمًا تكامليًا شموليًا للدين والتراث، وهي عملية متاحة وممارسة عمليًا من داخل التراث نفسه، ومن قِبل علماء لهم وزنهم العلمي.
فالتراث يستطيع استيعاب الواقع إذا أُحسن التعامل معه وإذا فُتح باب الاجتهاد بالشروط المعتبرة علميًا.

لكن الخطابات التجديدية المعاصرة تعاني من **أزمة وعي بالتراث.**

ولذلك فالمأزق العلمي هنا أن التجديد للشيء فرعٌ عن العلم به، وهذا ما لم يتحقق في خطابات التجديد العلمانية، إذ لا نجدها تنطلق من استجابة علمية بل من ضغط خارجيّ بعيد عن العلمية.

ومع أن خطابات التجديد العلماني ساهمت في الإساءة إلى مصطلح التجديد بما تثيره من حساسية سلبية تجاه هذا المصطلح الشرعي؛ إلا أن هذا لا يبرر التوجس السلبي من الأصوات السلفية التي تقوم بنشاط تجديدي وفق الضوابط الشرعية والمعطيات العلمية.